منازل الفضـــــل

١ — قصر الوالدة

للأستاذ محمد محمود جلال

يوم أراد الله أن أفرغ من الدراسة الابتدائية ، وقد أتممتها فى كنف الجمعية الخيرية الاسلامية فى معهدها ببنى مزار ، اتجهت أنظارنا إلى القاهرة عاصمة البـــلاد تطلعاً لاكمال الدرس فى معاهدها الثانوية

لم يكن من ذلك بد ، وقد قضت سياسة دنلوب ، بتركيز الدراسة الثانوية بالعاصمة ، وحرمان مديريات القطر من الخطوة الثانية للتعليم فضلاً عما أفسد من براعجه وشوه من خططه

كثر التردد على القاهرة ، بين تقديم الطلب ، والاستعداد للكشف الطبى ، والحرص على الظفر بمكان ، إذ كان نطاق المدارس ضيقاً ومحاطاً بكثير من القيود تمشياً مع تلك السياسة

كان ذلك فى أواخر سنة ١٩١١ أى من نحو ربع قرن

فاذا كان يوم الجمعة ، وذهبنا إلى ملعب الكرة بالحلمية الجديدة مررنا بشارع البرمونى . هناك يستوقف النظر تجمع كثير من النسوة والصغار يختلفن إلى دار فى مواجهة « زقاق » صغير ينتهى بها فتغيره وتحيله ميداناً فسيحاً للرحمة والاحسان . . .

كانت تلك الدار « مبرة محمد على » تجد فيها فقيرات الأمهات وفقراء الأولاد رعاية عالية ، وعطفاً كريماً : يلقين فيها يد الطب تأسو ، ويد البر تواسى ، تستنقذ اليدان بفضل الله أناسى من خلقه من براثن الأمراض وآلام الحياة

فاذا سألت لمن هذا السَّمَر ؟ ومن يقوم على هذا البر ؟ ومن يغذى تلك الشجرة المباركة ؟ أجابك المثنون الداعون هى : « الوالدة » أطال الله بقاءها

« الوالدة » ! ! وأى اسم فى الوجود أولى بهذه المعانى من هذا الاسم الكريم ؟ وهل فى الدنيا أكثر عطفاً من الوالدة ! !

أليس بين الاسم والفعل خير تناسق وأوثق صلة ؟

إنا نرى اليوم فى مصر كثيراً من مظاهر البر ، وأماكن للعلاج وافية الأعداد ، ولكننا حين نذكر ما كان ، وحين أكتب اليوم ، إنما ننظر وأكتب عما كان منذ ربع قرن . كانت « مبرة محمد على » لا تقل فى عين الفقير عما يرى اليوم فى عجيبة « الراديو » والطيران

ولما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العليـة ، ونزلت جيوش الأولى شاطئ طرابلس ، تحمس المصريون ذاكرين ما هم فيه وما بهم من ويلات الاحتلال الانجليزى ، يأسون جراح المجاهدين بفضل من المال وشئ من العون ، رأينا « الوالدة » تتقدم الصفوف وخلفها الفضليات من نساء مصر يقمن بواجب الاغاثة ، ويجمعن التبرعات ، يوفين ما عليهن لله ، وما فى ذمتهن للحق والأخلاق

هذه « سوق الاحسان » نافقة ترأسها « الوالدة » ، وتلك دعوة للتشاور بين سيدات مصر فى « قصر الوالدة » ، وفى الصباح تتحلى صحف مصر بفاتحة التبرعات مصدرة باسم « الوالدة »

وفى الحلمية الجديدة بناء جميـل ، تسمع به حركة ولا تسمع فيه لغواً ، يجمع كثيرين من أبناء البلاد ، يتعلمون الصناعة ، ينقل إليك الأثير نغمات آلاتهم توقع الأنشودة فى تدعيم صناعة البلاد

فاذا خطوت إلى شارع سليمان باشا ، راعك مخزن فاخر ، نخاره وروعته قطع الأثاث المتقن برعت فيـه أيدى المصريين والعبقرية الفنية الموروثة ، فبينا نرى المخازن والمحال تطلى وتنسق إعلاناً عما بها إذا بذلك المعرض يحلى المكان ويعلن عنه

والعهد بذلك الحى أنه « أفرنجى » فى مساكنه ومقاهيـه ومخازنه ، وإنك لمفترض إذن أن هذا المكان « لكريجر » أو « لجانسان » ، أو غيرهما من تجار الأثاث الثمين . ولكنه قطعة من مدرسة الحلمية وقفت كالراووق لا تبقى للمعرض إلا ماله قيمة حقيقية ، تعلن فى صدق عن حقيقة البلاد وأبناء البلاد وإنتاج البلاد ، فى الحى الذى لا يقطنه إلا الأوروبيون

وكذلك كانت « الوالدة » شغل السمع والبصر

التحقت بالمدرسة السعيدية ، أجتاز من أجلها جسر قصر النيل فى اليوم مرتين ، فأمر بقصر « الوالدة » مرتين ، ومن العجب أن يزداد المرء فى كل نظرة شغفاً بالقصر ، وألا يكون لتكرار رؤيته إلا استزادة الاعجاب وامتلاء العين من محاسنه ، على نقيض ما يعرو الانسان عادة من ملل إذا تكرر النظر ، ولو فى نزهة

كان « قصر الدوبارة » أحب أحياء القاهرة إليّ . فاذا أردت ترويحاً عن نفسي سرت على شاطئ النيل حذاءه ، وإذا شمرت بضيق طلبت تفريجه فى سويعات المساء بين مغانيه ، وإذا جلت بالجزيرة وقفت على النيل من الشاطئ الغربى أنظر اليه ، وكثيراً ما طالعت العبر من دروسى فى تلك الناحيـة فساغ فهمها وانجلى الكرب

بل إنى تمنيت أن يكون لى فيه سكن ، وأن أصبح من قاطنيه ، فلما استقر بنا المقام بشارع « الحوياتى » حمدت الله وقلت هذه خطوة فى القرب منه ، وقد أوشكت على الخروج من سلك الطلبة

أدركنا من الحياة أكثر ، وفهمنا بتقـدم السن وتحول الأيام مالم نكن ندرك من قبل ، فاذا بى أبدأ اليوم متنزهاً فى البكور بقصر الدوبارة ، وأختم المساء بجولة فى ربوعه ، إذا أحسست القذى من قصر « العميد » لقيت الفرجة من «قصر الوالدة » كما يذهب عنك معرض الصنائع بشارع سليمان باشا ، غصة التسلط الأجنبي فى ميدانى الصناعة والتجارة

وفى سنة ١٩٣٢ أراد الله أن أظفر بشيء من الأمانى ، فسكنا داراً بالحى ذاته ، وبلغ من عرفانى لجميل الله ، وفيض السرور على قلبى أن قيدت فى جريدتى الخاصة هذا الانتقال بما يستحقه

فلما أن كان يوم جمعة ، ومررت بالقصر فى طريق الى مسجد «الشيخ بركات» هالنى اعلانات تلصق على الجدر الأنيقة ، يضعها صبيان دون اكتراث ، فأخذت ووقفت أقرأ ، الله أكبر ، هذه اعلانات عن بيع أثاث القصر !!!

لك الله يادار ! كنت مهبط رحمة ، فرفعت بك « الوالدة » علم البر ، وكنت منزل الفضل فدعوت للعـلم ، وقمت بانشاء معاهده وتمويلها ، كنت آية الفن من الطلاء الخارجى والباب الكبير الجميل الى الأثاث الداخلى الفاخر ، وها أنت اليوم يعبث بجدرك صبية وقد كان يهاب المرور بها كبار ، ويباع الأثاث ، فتستباح من الشارين الدار . ولم ذلك ؟ وفيم السخرية والتفريط فيك ووارثوك فى نعمة وبسطة من العيش ؟! وكيف هنت وأنت مصـدر العزة لبيوتات طاهرة ، وكنت الغوث والابقاء لدور وقصور

وكذلك أصبح يوم الجمعـــة عندى — وهو يوم الجمع والمرحمة — يوم العظة والاعتبار ، يوم كشف لى فيه عن « مبرة محمد على » سنة ١٩١١ ، ثم رأيت فيه ختام الآية ، وكيف عبثت أطماع الدنيا بالتراث المجيد

ومنذ حل الأجل ، وبدأ المكلف بالبيع من الخبراء ينفذ اعلانه أقصرت عن الطريق وتخليت عن عادتى ، وكرهت أن أرى كعبة العافين ومنار الفضل مزدحمة المسالك بالمتفرجين والعابثين

علم أبى — عليه رحمة الله — بالبيع فطلب الىّ أن أزور القصر وأشترى أثاثاً ينقصنا لغرفة المائدة ، وبقى بالقاهرة يومين ثم سافر الى الريف لبعض شأنه

وحين عودته سألنى هل نفذت رغبته ؟ وهل اقتنيت شيئاً ؟ لقد كنت أهابه على رعايته لى ، وما أظننى خالفت له مدى حياته رأياً ، فلما سئلت لم أعدل بالحق شيئاً ، قلت : لقد كبر علىّ يا أبى — وقد أعجبت بالقصر فنى ، وقدرت أثر صاحبته وأثره فى عالم الخير والعـلم لهذه البلاد شاباً — كبر علىّ أن تشترك قدماى فى امتهانه فلئن لم يأبه منا ريحه ذوو الشأن ، ولئن تدفقت الجموع تظفر بما يقتنى ، فانى سعيد بأن أقتنى تذكاره ، وأن أفى له بشيء من احترام الذكرى ، ثم والأثاث موفور فى مخازنه ، وجيـده اليوم معتدل الثمن

سر أبى بنظرتى ، وقال على الفور : « إنك أشبه بجدك ، فقد ذهب مرة مع فريق من صحبه لزيارة الخديو اسماعيل بالآستانة ، وكانوا فى جملة من كبراء البلاد يطالبون بتدخل الباب العالى لجلاء الاحتلال — والدولة فى ذاك الوقت صاحبة السـيادة — فلما جلسوا قدمت اليهم السجاير ، وطاف الخدم يشعلونها للضيوف الكرام ، أبى جدك أن يشعل سيجارته ، وكان الخديو اسماعيل قد كف بصره

فلما سئل من بعض رفاقه بعد الانصراف من الزيارة ، قال : « إنى نقدت ظلمه ، ومدحت إصلاحه — وهو خديوى — ولم أدخن أمامه بصيراً ، وإنى لأكره أن أدخن — وهو مكفوف البصر — احتراماً لعبرة مآله ، وصوناً لذكرى عزته الأولى .

قلت : الحمد لله ، لقد أفدت وفاء وعلماً أبن منه اقتناء حطام سريع البلى مهما دام ، وقمت بما يرضى ضميرى ولو فى أضيق مجال

* * *